

ذيول مؤرخي الصابئة على تاريخ الطبري

ثابت بن سنان ، هلال بن المحسن ، غرس النعمة محمد بن هلال

سميحة أبو الفضل
مرشحة للماجستير

ليس من السهل الحديث عن تاريخ الصابئة والوقوف على ما فيه ، نظرا لقدم هذا التاريخ ، وقلة المصادر الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها ، ولضياع بعض كتابات القدماء ، ان لم يكن معظمها ، بسبب تلف المواد التي كتبت عليها من رق وأوراق بردي بالحروب والغزوات والفتن ، أو لأنها أهملت كمخطوطات لتعذر من يجيد قراءتها . أضف الى هذا انه نتيجة للصراعات الدينية التي سادت كلا من بلاد الرافدين والشام ، عمدت بعض المجموعات الدينية الى اخفاء كتاباتها والتكتم على معتقداتها وطقوسها . ولا شك ان هذه الاحوال جميعا قادت الى نقص في المعلومات وأخطاء في التفصيل مغايرة للحقيقة .

وينطبق هذا كل الانطباق على تاريخ الصابئة الذين هم قوم من اصحاب احدى الديانات الشرقية القديمة . واذا كان لا يعني هنا الحديث عن ديانة الصابئة فيكفي ان نشير ان العادة جرت على تقسيم الصابئة الى قسمين : قسم عراقي ، وآخر شامي جزري . ويعرف الشامي الجزري عادة باسم صابئة حران ، وقد انقرضوا ولم يبق منهم احد ، أما القسم الاخر فقد عاش في جنوب العراق على ضفاف نهر الفرات وتشعباته ، ويبدو ان خلافا عقائديا ميز الحرانيين عن العراقيين . وما زال في العراق وايران ما يزيد على الاربعين الفا من الصابئة يعرفون الان باسم المنديين او المندائيين (١) .

وتذكر المصادر العربية ان اسم الصابئة اطلق على الحرانيين في ايام الخليفة العباسي المأمون (٢) ومن ثم شهروا بهذه التسمية وعم استخدامها ليشمل الطرفين ، وعلى العموم كان لعقيدة الصابئة تأثيراتها على عقائد الشرق القديم السماوية وغير السماوية . كما ان افكارا من هذه العقيدة تغفلت الى افكار وعقائد بعض الفرق

الاسلامية والحركات الصوفية (٣) .

تكلم صابئة حران اللغة الارامية ثم السريانية ، وأجادوا مع السريانية اللغة الاغريقية ، وشغلوا لهذا دورا كبيرا في تطور الفكر اللاهوتي المسيحي وتميزوا دائما بدور الوسيط بين الاداب الارامية والسريانية من جهة والاغريقية من جهة ثانية ، وقاموا أحيانا بالدور نفسه بين اللغات التي سادت اراضي الامبراطوريات الفارسية المتعاقبة .

وبعد قيام الفتوحات الاسلامية ظلت مدينة حران تتمتع بمكانة عالية ، ولعل هذه المكانة كانت سببا من الاسباب التي دفعت مروان بن محمد الى اتخاذها عاصمة له، وبعده ايضا عبد الله بن علي القائد العباسي المشهور (٤) . وشغل بعض الحرانيين ادوارا في الادارة والترجمة في العصر الاموي، لكن هذه الادوار عظمت في العصر العباسي (٥) . فالحرانيون كان لديهم تراثهم الفكري الخاص وهو تراث غني، وامتلكوا تراثا مترجما عن الاغريقية ولغات فارس ، وعلى هذا الاساس شهروا منذ فترة مبكرة بالتنجيم والطب والفلسفة والقدرة على الترجمة . وفي بغداد الخلفاء العباسيين الاوائل قام الحرانيون بالدور الرئيسي في حركة الترجمة الى العربية، ودفع هذا عددا منهم ، لا بل عددا من اسر الحرانيين البارزة الى الهجرة الى بغداد والاستقرار بها ، حتى غدوا جالية متعاضدة متعاونة ، شهر على رأسها اسرتان هما آل زهرون وآل قرّة، اللتان جمعت اواصر الصداقة والقرابة بينهما . وحافظ الحرانيون في البداية على عقائدهم لكن بعد مضي وقت لم يكن بالقصير دخلوا في الاسلام ، وهذا ما اقتضته الاحوال وأوجبه الظروف، ومع ذلك نسجت حكايات طريفة ومثيرة حول دخول بعضهم في الاسلام ، اخترنا منها الحكاية التي تعلق بـهلال بن المحسن لمصلحة هلال المباشرة بدراستنا هذه . اسلم هلال في أواسط عمره وحسن اسلامه ، وكان اول من دخل الاسلام من آل زهرون ، وبعد اسلام هلال أقبل أفراد هذه الاسرة على الدخول بالاسلام حتى أصبحت أعداد المسلمين من الصابئة تفوق أعداد الذين حافظوا على ديانتهم القديمة .

روى المؤرخون عن هلال قوله : « رأيت في المنام سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا قد وافى موضع مقامه ، والزمان شتاء والبرد شديد والماء متجمد ، فأقعديني ، فارتعدت حين رأيته ، فقال لا ترتعد فاني رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحملني الى بالوعة في الدار عليها دورق خزف وقال توضأ وضوء الصلاة ، فادخلت يدي في الدورق فاذا الماء جامد فكسرتة وتناولت منه ما مررت به على وجهي وذراعي وقدمي ، ووقف الرسول في صفي وجذبني الى جانبه وقرأ « اذا جاء نصر الله والفتح » وركع وسجد وأنا افعل مثله ، وقام ثانية وقرأ سورة لم أعرفها ، ثم سلم وأقبل علي ، وقال : أنت رجل عاقل والله يريد بك خيرا

فلم تدع الاسلام الذي قامت عليه الدلائل والبراهين ، وتقيم على ما أنت عليه . هات يدك فأعطيته يدي وصافحني وقال لي : قل جئت بالبينات والهدى ، فقلت ذلك . ونهض فرايت نفسي قائما في الصفه فصحت صياح المرتاع ، فانتبه أهلي وجاؤوا بعد أن سمعوا صياحي ، ومنهم أبي فقال ما بك وأوقدنا المصباح ، وقصصت للجميع قصتي فوجموا الا أبي فانه ابتسم ، وقال : ارجع الى فراشك وأجل الحديث للمصباح ، وتأملنا الدورق المنكسر بفعل العمل ، وقال أبي : يا بني هذا منام صحيح وبشرى محمود ، الا أن اظهر هذا الامر فجأة ، والانتقال من شريعة الى شريعة ، يحتاج الى وقت ، وأعتقد بما أوحيت به فإني معتقد مثله ، وتصرف في صلاتك ودعائك وفق أحكامه ، وشاع الحديث . وبعد مدة رأيت رسول الله ثانية في منامي على نهر دجلة في باب البستان ، (وقد عرف هذا البستان بالزاهر ، الذي ابتاعه له جده أبو اسحاق الصائبي لسكناه) فقال لـ : ما فعلت شيئا مما وافقتني عليه وقدرته معي ، فقلت بلى يا رسول الله اعتقدت بما أمرتني به ، وتصرفت في صلاتي بموجبه ، فقال له : لقد بقيت في صلاتك شبهة ، فقال : وحملني الى باب المسجد الذي بالمشرفة ، وكان أمامه رجل خراساني نائم مصاب بالاستسقاء ، ورم جسمه ، فمر الرسول يده على بطنه وقرأ عليه فقام الرجل صحيحا معافى .

فقلت صلى الله عليك يا رسول الله فما أحسن تصديق أمرك وأعجز فعلك . واثر هذا اشهر اسلامه (٦) .

لا شك أن هلال بن الحسن الصائبي اسلم لان الظروف اقتضت ذلك ، فاسلافه جاؤوا فيما مضى الى بغداد ليعملوا بالترجمة ، أما هو وطبقته فلم تعد الترجمة ميدان عملهم بل صاروا من كبار موظفي ادارة الخلافة في بغداد ، بعضهم صار كتابا ، وعمل آخر بوظيفة تعدل وظيفة الوزارة ، وافترضت قوانين الدولة وأعرافها أن يكون أصحاب هذه الوظائف من المسلمين لذلك كان لا بد من الدخول في الاسلام . واستدعى الحال اختراع قصة كالتى أثبتناها .

وتزوج هلال اثر اشهاره لاسلامه امرأة مسلمة وهي التي أنجبت له ابنه محمد ، محور دراستنا هذه وموضوعها الاساسي . وقبل الحديث عن محمد من المفيد أن نذكر أن زوجة هلال المسلمة شكت باسلامه ، وذلك لانه لم يقطع صلاته بأهله وذويه من الصابئة ، وهنا جاءها هي الاخرى الامام علي كرم الله وجهه في المنام فطمأنها (٧) .

ولنلاحظ ان العصر الذي أعلن فيه هلال اسلامه كان هو العصر البويهي ، والاسرة البويهية شيعية ، لذلك اقتضى الحال تكملة قصة اسلام هلال ، التي تمت بمعجزة نبوية ، بقصة بطلها الامام علي بين أبي طالب .

اهتم عدد من رجالات آل الصابئ بتدوين التاريخ ، وبرز من بين صفوفهم عدد من كبار المؤرخين .

يقول القفطي في كتابه أخبار الحكماء: « وإذا اردت التاريخ متصلا فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري رضي الله عنه، فانه من أول العالم والى سنة تسع وثلاثمائة . ومتى شئت أن تقرن به كتاب أحمد بن أبي طاهر وولده عبيد الله فنعم ما تفعل لأنهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية وأتيا من شرح الاحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة ، والطبري أزيد منهما قليلا ، ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فانه يداخل الطبري في بعض السنين ، ويبلغ الى بعض سنة ثلاث (الاصح خمس) وستين وثلاثمائة . فان قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله ، فان في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الاماكن . ثم كتاب هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابئ فانه يداخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه الى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولم يتعرض أحد في مدته الى ما تعرض له من احكام الامور والاطلاع على اسرار الدول وذلك انه أخذ ذلك عن جده ، لانه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع فاستعان بعلم الاخبار الواردة على ما جمعه ، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال وهو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين وأربعمائة » (٨) .

نستدل من هذا النص البالغ الاهمية ان الاهتمامات التاريخية لآل الصابئ برزت في العصر البويهي ، وفي الحقيقة كان الذين اعتنوا بالتاريخ من آل الصابئ قد أوقفوا جهودهم تقريبا على التأريخ للعصر البويهي، لكن كتاباتهم تعتبر بحكم المفقودة لسوء الحظ .

كان ثابت بن سنان اول من اهتم بكتابة التاريخ من آل الصابئ ، فهو متخصص اصلا في الطب ، تعلق بخدمة الخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ / ٩٤٣ - ٩٤٠) وتولى تدبير المارستان في بغداد ، وخدم عددا من الخلفاء بعد الراضي . وذكر بعض الذين ترجموا لثابت انه توفي سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ - ٧٤ م ، وهذا وهم اصح منه ان وفاته حدثت في عام ٣٦٥ / ٩٧٥ - ٧٦ . وهذا ما تثبته مخطوطة تاريخ أخبار القرامطة المنتزعة من كتابه ، وما نقله ياقوت عن ابن أخت ثابت (٩) هلال بن المحسن الصابئ .

اهتم ثابت الى جانب الطب بالتاريخ وتدوين أخباره فكتب عددا من المصنفات التاريخية ، أشهرها كتاب في التاريخ كبير رتبه حسب حوادث السنين على طريقة الحوليات وذيل به على تاريخ الطبري لكن بشيء من التداخل ، فقد بدأ ثابت تاريخه هذا بعهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٩٠٨ / ٩٣٢) وتوقف عن متابعة الكتابة فيه فبيل وفاته بأيام ، ولثابت تاريخ « مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد » ، وله كتاب آخر دون فيه « وفاءات من توفي في كل سنة من سنة ثلاث مائة الى السنة التي مات فيها » (١٠) أي سنة ٣٦٥ .

ووصلنا كتاب مخطوط صغير جاء بمثابة مختصر لتاريخ ثابت بن سنان ضمنه مختصر ما حواه تاريخ ثابت من أخبار القرامطة ، وهذا المخطوط في حوزة المستشرق برنارد لويس ، وقد نشره سهيل زكار ضمن نصوص كتابه أخبار القرامطة ، ومن تحليل مواد هذا المخطوط نجد مايلي:

يمكن من حيث المبدأ تقسيم المعلومات التي يتضمنها الى قسمين : القسم الاول وقد وردت معظم رواياته في تاريخ الطبري ، والقسم الاخر وقعت أحداث رواياته بعد وفاة الطبري ، فقام ثابت كما هو مفترض بتدوين أخبار هذه الأحداث.

وجل الاخبار في هذا القسم من عصر ثابت ، وعندما نقرا هذا القسم نلاحظ امرا مدهشا حيث ان الكتاب يروي أخبار القرامطة ابتداء من « سنة مائتين وثمان وسبعين من الهجرة » حتى « سنة تسع وثلاث مائة » بشكل كامل التسلسل سنة تلو أخرى ثم يقفز فيبدأ بأخبار « سنة ستين وثلاث مائة » .

لا نعرف سبب هذا بالتأكيد ، لكن لدى قراءة المواد الاخيرة ومقارنتها بالمواد الاولى يحصل لدينا انطباع ان المواد الاولى تهتم بقرامطة البحرين والعراق بشكل رئيسي ، في حين ان المواد الاخيرة موقوفة الى أبعد الحدود على نشاط القرامطة في الشام وصراعاتهم مع الخلافة الفاطمية في الشام ومصر ، ان هذا يدفعنا الى الافتراض ان الذي جمع مواد مخطوطة المستشرق لويس جمعها من كتابين لعلهما كانا في مجلد مجموع واحد ، هما : تاريخ ثابت بن سنان الذي ذيل به على تاريخ الطبري ، وكتاب الاخر الذي اوقفه على تاريخ الشام ومصر ، ويرجح ان الكتاب الاول كان مبتورا فهو بالاصل (مسودة المؤلف) (١١) والذي تولى عملية الاختصار لم ينتبه لا الى الخرم الكبير ولا الى طبيعة المواد المروية ولا الى الاختلاف الذي لحقها ، ولعله تنبه ولكنه لم يخبرنا . ومهما يكن الحال فان المواد المتأخرة من مخطوطة المستشرق لويس تتوافق ، بل تتطابق تماما مع محتويات تاريخ دمشق او المذيل على تاريخ دمشق لابن القلانسي .

وقد صرح ابن القلانسي بأنه صنع « مذيلا على تاريخ دمشق » . وكما هي العادة ينسب المذيل على ذيل ، والمذيل يأتي بمثابة ملحق بكتاب اساسي . وبدأ ابن القلانسي مذيلة بحوادث سنة ٤٤٨ للهجرة .

ولنتذكر ما حكاه القفطي عن ثابت بن سنان وهلال بن الحسن ، فثبت كتب فيما كتبه كتابا اوقفه على اخبار مصر والشام ، ووقف به مع أحداث سنة وفاته وهي سنة ٣٦٥ هـ ، ومن بعده جاء هلال بن الحسن فكتب مذيلا على تاريخ ثابت تداخلت بعض حولياته ، حيث بدأه بحوادث سنة ٣٦٠ هـ ، ووقف به مع نهاية سنة ٤٤٧ هـ .

ولعله سيكون من المفيد قبل الاستطراد في هذا الحديث الوقوف قليلا مع هلال بن المحسن ، وقد كان القفطي وصفه قبل قليل انه كان ابن اخت ثابت ، وفي الحقيقة جاء هذا التحديد تجاوزا حيث ان ابراهيم جد هلال هو ابن اخت ثابت .

لقد اوردنا قبل قليل مسألة اسلام هلال والمكان هنا للحديث عن انه ولي ديوان الانشاء في بغداد وعاش فترة تاريخية هامة جدا عاصر أحداثها، وعرف أخبارها وعاشر أبطالها ، فكتب ما توصل اليه وما عرفه من اخبار بشكل يمكن وصفه بالوثائقية ، وقد اودع ذلك في عدد من الكتب ، مفردة مثل كتابه في تاريخ الوزراء وهو مطبوع واسع الاهمية (١٢) . أو ذيل على ما كتبه ثابت بن سنان ، اي انه كتب الذيل للطبري . كما ذيل على كتاب ثابت الآخر الذي اوقفه على تاريخ بلاد الشام ومصر ، وهذا ما اكده القفطي في نصه الذي نقلناه انفا ، وما بينه سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان (١٣) : « وكان هلال من كبار العلماء والادباء وله التاريخ الذي ذيله على تاريخ ثابت ابن سنان وبدا من سنة احدى وستين وثلاث مائة الى سنة سبع واربعين واربع مائة » . في الحقيقة ابتدا هلال بن المحسن كتابه الذي ذيل به على تاريخ ثابت بحوادث سنة ٣٦٠ هـ وانهاه باخبار سنة ٤٤٧ هـ ، فهذا ما قاله ابنه غرس النعمة محمد بن هلال في مقدمة كتابه (١٤) ، وبذلك تداخلت مواد هلال مع مواد ثابت مثلما تداخلت من قبل مواد ثابت مع مواد الطبري .

لسوء الحظ ان معظم مواد التراث التاريخي لاسرة آل الصابئ هي بحكم المفقودة وقد اكثر سبط ابن الجوزي النقل من تواريخ كل من ثابت وهلال كما ان المستشرق اندروز عشر على قطعة من تاريخ هلال حوت أخبار خمس سنين اولها سنة ٣٨٩ هـ وآخرها سنة ٣٩٣ هـ ، وقد ألحق مارجليوث هذه القطعة بكتاب تجارب الامم لمسكويه ، وذلك بعد ذيل ابي شجاع ، وطبعها في القاهرة سنة ١٩١٩ .

ونعود الان الى ابن القلانسي فنجد انه لم يصرح في كتابه باعتماده على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن أو على واحد منهما على الاقل ، وكل ما هنالك انه قال في سياق الحديث عن ولاية حيدرة بن مفلح لدمشق وهو أحد الولاة الفاطميين « واستمرت عليه الايام في الولاية الى سنة ثمان واربعين واربع مائة التي يبنى هذا المذيل عليها ، وعادت سياقة الحوادث منها ايراد ما فيها وتجدد بعدها » (١٥) .

والبحث التاريخي المقارن هو الذي قاد الى الافتراض ان ابن القلانسي بنى مذهبه على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، او على واحد منهما ، اذ انه من المؤكد الى حد ما ان مصنف ابن القلانسي بشطريه « الاساسي » و « المذيل » يبدأ بحوادث سنة ٣٦٠ هـ . وبهذه السنة بدأ هلال كتابه ، ومن المسلم به ان ما كتبه هلال عن

اخبار السنوات (٣٦٠ - ٣٦٥ هـ) ، وهي السنوات التي تداخل بها كتابه مع كتاب ثابت ، هناك تطابق بالمواد ، مع احتمال بعض الفوارق في التفاصيل ، فهذا ما نلاحظه حينما نقارن مواد السنوات المتداخلة بين مواد تاريخ ثابت بن سنان وتاريخ الطبري . لهذا ليس من المستبعد أيضا أن يكون ابن القلانسي اعتمد على تاريخ هلال ابن المحسن دون سواه . وتبقى القضية في حدود الفرضية فتاريخ هلال بن المحسن لم يصلنا كاملا ، ومصنف ابن القلانسي وصلتنا منه نسخة خطية واحدة (١٦) قد بتر من اولها مقدار اربع عشرة ورقة ، ولا شك ان هذه الاوراق قد حوت خطبة الكتاب مع بعض المواد الاخبارية .

واذا صحت هذه الاجتهادات فهذا يعني انه مع وفاة هلال بن المحسن تم صنع مذيّلين على كتابه احدهما شامي دمشقي صنعه ابن القلانسي ، والاخر عراقي بغدادي صنعه محمد بن هلال بن المحسن ، الذي شهر بلقب غرس النعمة ، وهو بالاصل موضوع هذه الدراسة ، فلنحاول التعرف الى حياته ونتاجه :

تزوج هلال بن المحسن اكثر من مرة قبل اسلامه وبعده ، وانجب عددا من الاولاد شهر منهم من زوجته المسلمة ابنه محمد غرس النعمة ، ويرجح ان محمدا هذا ولد سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، على ان بعض كتب التراجم تجعل مولده قبل ذلك بسنة او سنتين (١٧) .

نشأ غرس النعمة في كنف ابيه الذي رعاه فاعتنى بثقافته وتعليمه ، فعلى ابيه تخرج في صناعة الانشاء والكتابة والادب . وقد سمع ايضا من ابي علي بن شاذان ، ولم تذكر المصادر من شيوخ غرس النعمة غير هذا الشيخ مع ابيه (١٨) . لكن لنا ان نفترض انه بحكم مكانة هلال بن المحسن لا بد ان ابنه قد لقي شيوخ بغداد وعلماء الخلافة العباسية في القرن الخامس واخذ عليهم وثقف ، فهو قد نهض فيما بعد بأعمال ديوان الانشاء ايام الخليفة القائم (٢٢٤ - ٢٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) ونهوضه بهذا العمل مع ما خلفه من مصنفات في التاريخ والادب يدل على ان الرجل قد استوعب معارف عصره استيعابا جيدا ، ومع هذا يرجح ان المؤثر الاكبر في ثقافته وتكوين شخصيته من كافة الجوانب هو ابوه هلال ابن المحسن ، فهو الذي طلب منه التذيل على كتابه بالتاريخ ، وقبل ذلك دفعه بعد تخريجه في طريق التأليف في الادب وغيره ، فهو في مؤلفاته الادبية يأتي على ذكر ابيه بشكل مستمر وينقل عنه ويحيطه اثناء حديثه عنه بهالة عظيمة من الاجلال والتقدير .

ففي كتابه « الهفوات النادرة » يقول في احد الامكنة : « وحدثني الرئيس الاجل ابو الحسين والذي قال » . وفي مكان اخر « وحدثني الرئيس والذي ابو الحسين

رضي الله عنه قال « ، ووصف في كتابه في التاريخ اسلوب ابيه بالسحر الحلال والعذب الزلال والصادر عن اوجد دهره وفريد عصره (١٩) .

كان غرس النعمة في جوانبي الثلاثين من عمره عندما توفي والده وقد ورث عنه مكانته مع ثروة كبيرة « واملاكا نفيسة على نهر عيسى » (٢٠) وأمنت له الثروة الموروثة والحظوة سبل العيش بهناء وسعادة ، ويبدو أنه قد عكف على تجميع ثروته وزيادتها ولم يتورط في مؤامرات عصره التي كانت كثيرة وشديدة اضطرب بها القرن الخامس، وابتعاده عن التورط بالمشاكل السياسية إبقاه « محترما عند الخلفاء والملوك والوزراء » (٢١) .

استمر غرس النعمة في اهتماماته الثقافية والادبية ، ووصف انه كان كريما صاحب صدقات كبيرة ذلك أنه كما يبدو كان ينفق على بعض العلماء كما ان الذين ترجموا له قد ذكروا في جملة مآثره انه اوقف دارا ، شحنها بالكتب من مختلف الانواع على الناس ، ويروي ابن الجوزي في كتابه المنتظم انه « في رجب من سنة ٥٢٠ وقف أبو الحسن محمد بن هلال الصابي دار كتب بشارع ابن أبي عوف من غربي دار السلام ونقل اليها نحو الف كتاب ، وكان السبب ان الدار التي اوقفها سابور الوزير بين السورين احترقت ونهب أكثر ما فيها فبعثه الخوف على ذهاب العلم ان وقف هذه الكتب » (٢٢) . وغدت هذه الدار منتدى العلماء وملتقى الباحثين والدارسين والمتناظرين، ومن المرجح ان غرس النعمة كان يشرف شخصا على تسيير امور هذه الدار ويحضر ندوات العلماء ويشارك فيها ، مما كان له ابعد الاثار علن نمو ثقافته وارتفاع مكانته اجتماعيا ، كما ان ذلك شجعه على التصنيف في الاداب ومكنه من سبل النجاح وزوده بمواد غنية جدا وهذا واضح كل الوضوح في كتابه الهفوات النادرة « أو البادرة » .

وكان غرس النعمة اخر المشاهير من قومه من آل الصابي فوفاته انتهى مجد الاسرة ، هذه الاسرة التي عاشت العصر البويهي ، الذي شهد غرس النعمة نهايته ، ورأى بغداد وديار العرب والمسلمين تدين بالطاعة لبداة التركمان ، الذين جلبوا معهم الى بغداد نمطا من الادارة الجديدة وعقلية سياسية ودينية جديدة، ولهذا لا عجب ان انتهى مجد اسر بغداد السياسية والادارية التي شهرت في العصر البويهي .

في ذي القعدة من سنة ثمانين واربع مائة (٨٧٠ م) مات غرس النعمة عن عمر نيف على الستين ، وقد خلف ثروة قدرت بسبعين ألف دينار ودفن أولا في داره في بغداد ، ثم نقل فيما بعد الى مشهد علي بالكوفة (٢٣) .

صنف غرس النعمة عددا من المصنفات ، وذكرت له كتب التراجم عناوين ثلاثة كتب منها ، هي : كتاب في التاريخ ، وكتاب الربيع ، وكتاب الهفوات . ولم يصلنا من

هذه الكتب بشكل مباشر غير كتابه الهفوات وقد نشر ، وسنتحدث عن هذا الكتاب وعن كتاب الربيع ثم نخلص للحديث عن كتاب التاريخ الذي وصلنا بشكل غير مباشر . يروى ان كتاب الربيع صنفه غرس النعمة بمثابة ذيل على كتاب نشوار المحاضرة للتونخي (٢٤) . ويبدو ان غرس النعمة كان معجبا بكتاب التونخي ودليلنا على ذلك كثرة النقول عنه في كتاب الهفوات ، فقد اخصى صالح الاشر محقق كتاب الهفوات قرابة اربعين خبرا منقولا عن القاضي ابي علي التونخي تصريحاً او تلميحاً وهذا يعني ان طبيعة كتاب الربيع شابهت طبيعة نشوار المحاضرة ، ومعروف ان كتاب نشوار المحاضرة كتاب رائد في طريقة تدوين الاخبار والحكايات المستطرفة ، املانا التونخي من ذاكرته وحكى في غالبيتها اخبار من عرفهم وعاصرهم في حياته من وزراء وقضاة وكبار موظفي الدولة من الكتاب والعمال ، ومن هنا يعد كتاب نشوار المحاضرة مصدرا اساسيا في الدراسات الاجتماعية لتاريخ العصر العباسي ، واذا صح وشابه كتاب الربيع كتاب نشوار المحاضرة ففيه دليل على شدة اهتمام غرس النعمة باخبار مجتمعه ونجد ذلك جليا في كتابه الهفوات وفي ثنايا التفاصيل العديدة من اخبار الحوادث التي اتى على ذكرها في كتاب التاريخ وهذا ما سنمر به بعد قليل .

ولا شك ان المكانة الاجتماعية والرسمية لاسرة غرس النعمة ، ولغرس النعمة نفسه قد مكنته من جمع مواد اخبارية اجتماعية لم تتوافر لسواه . ولم يصلنا كتابه الربيع ، وجل ما وصلنا منه بعض النقول القصيرة في بعض كتب التراجم (٢٦) .

اما الاثر الوحيد من اثار غرس النعمة الذي وصلنا كاملا وبشكل مباشر فهو كتاب الهفوات النادرة (او البادرة) ويتضمن مجموعة من الاخبار الطريفة والحكايات المسلية والنوادر الممتعة ، ابطالها رجالات الدولة العباسية وسواهم من ذوي المكانة ، جاءت بمثابة سقطات على السن المتحفظين والمتحرزين من رجالات السلطة والقضاء والادارة ، ولهذا يرجح ان اسم الكتاب كان الهفوات البادرة .

يقول صالح الاشر محقق كتاب الهفوات « موضوع الهفوات النادرة اذن هذا اللون الممتع من ادب الاسمار والحكايات والطرائف والملح ، ويبدو ان هذا اللون من التأليف الادبي اصاب ازدهارا في المجتمعات الاسلامية منذ القرن الهجري الرابع ، ففي الحكاية والسمر مؤانسة وامتاع ، وفيها تنفيس عما كان المجتمع يعانيه من كبت ومرارة وحرمان وفيها عرض لجوانب من الحياة : حياة أناس من جميع الطبقات من ساكني القصور الى الساعين وراء لقمة العيش الشحيحة ساكني الاكواخ » (٢٧) .

وقد اوضح غرس النعمة في فاتحة كتابه « الهفوات » الاسباب التي دفعته الى جمع مادته والفاية من تأليفه ، فقد اراد ان يقدم لقرائه نوادر مستطرفة تسليهم

وتحمل اليهم الوانا من الفكاهة والمتعة ، ويرجح انه كان يدون خلاصة الاخبار التي كان تتداولها المجالس التي كانت تعقد في دار كتبه ، وعلى هذا يمكن القول ان تصنيف كتاب الهفوات اقتضى وقتا طويلا (٢٨) .

ويحوي كتاب الهفوات ما يزيد على اربع مائة حكاية عرضت بلغة جيدة ، لكن هذه الحكايات لم تسق حسب موضوعاتها وأبطالها ، وانما جاءت هكذا بلا ترتيب ولا تنسيق ، ومرد هذا كما بينا قبل قليل الى ان المؤلف كان يدون ما يجتمع لديه من مواد فترة تلو الاخرى ، وبعض هذه المواد المدونة في الهفوات وصل الى غرس النعمة عن طريق الرواية الشفوية او المشاهدة وبعضها الاخر نقله من بطون العديد من المصادر التي كان يطلع عليها .

واسلوب غرس النعمة في الهفوات اسلوب نثري راق ، اسلوب مدرسة الجاحظ ، وهو اسلوب أصيل يمكن التعامل معه بيسر وسهولة ، ويحوي كتاب الهفوات موادا اخبارية هو مصدرها الوحيد ولهذا غدت مكانة الكتاب عالية جدا (٢٩) .

ومهما علت مكانة « الهفوات » فان شهرة غرس النعمة نبعت من كتاب التاريخ ، فغالبا ما يشار اليه من قبل المترجمين باسم صاحب التاريخ ، وكتاب التاريخ لم يصلنا منه نسخة خطية بشكل مباشر ، لكنه وصلنا بشكل غير مباشر عن طريق سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان ، فقد كتب سبط ابن الجوزي مصنفه مرآة الزمان اكثر من مرة ، وكان في كل مرة يهذب او يزيد ، ويبدو انه عثر في دمشق على مجموعة من الكتب كان من بينها مصنفات آل الصائبي ، فقام باقتباس بعض مواد هذه المصنفات ، وادع في احدى المراتب تاريخ غرس النعمة في متن كتابه بالكامل ، وفي العالم الان عدد كبير من النسخ المخطوطة لكتاب مرآة الزمان ، وفقط نجد نص تاريخ غرس النعمة في نسختين خطيتين احدها في مكتبة أحمد الثالث في اسطنبول برقم ٢٩٠٧ ب والثانية في المكتبة الوطنية بباريس برقم عربي ١٥٠٦ .

ان مكانة تاريخ غرس النعمة تتجلى لنا واضحة من خلال الفترة التي اרך لها ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى من خلال المادة الاخبارية التي حواها من حيث التفصيل ودرجة الموثوقية والتفرد .

لقد اרך غرس النعمة لحوادث السنوات الواقعة ما بين ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م و ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وهي سنة وفاته . وشهدت هذه الفترة بالنسبة لديار الخلافة العباسية انهيار الحكم البويهي في العراق وغيره ، وتأسيس السلطنة السلجوقية ، وفي الوقت نفسه اجتياح قبائل الفز والتركمان للعراق والجزيرة والشام وارمينية واسية الصغرى بعد اجتياحهم خراسان وسواها في المشرق . وبعد تأسيس السلطنة

السلجوقية وامتداد حكمها نحو بلاد الشام والجزيرة واسية الصفري من أهم أحداث تاريخ العرب والاسلام واعمقها تأثيرا ، سواء على الصعيد الديني أم الاجتماعي أم الاقتصادي وحتى البشري والعرفي . ومصدرنا الاول والاساسي حول هذه الفترة والذي يرقى الى الدرجة الوثائقية هو تاريخ غرس النعمة ، ومنه نستخلص ان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة الحادي عشرة للميلاد قد حفل بالاحداث الكثيرة والهامة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والسياسية .

هذا ويلاحظ انه على الرغم من ان غرس النعمة كتب تاريخه بناء على وصية ابيه وجعله ذبلا على تاريخ هذا الاخير ، اعطاه عنوانا خاصا به هو « عيون التواريخ » وبذلك سبق في اختيار هذا العنوان ابن شاعر الكتبي بسنوات طوال .

وغطى غرس النعمة كشاهد عيان ومشارك في احداث ، اخبار الصراعات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي رافقت سقوط الحكم البويهى ، وذلك على مستوى الكتل والقبائل والافراد والطوائف ، واهتم بما شهده العراق اولا اثناء قيام السلطنة السلجوقية واتساع رقعة سلطاتها ، واولى اخبار الجزيرة من الاهتمام ما جاء بالترتيب تاليا لاجبار العراق ، ثم تعرض بعض الشيء لاجبار بلاد الشام واسية الصفري ، واهتمنا الى اخبار مصر والشمال الافريقي ، ونادرا ما اتى على ذكر وقائع بلدان العرب والاسلام الاخرى ، ومع ذلك يلاحظ ان هذا النادر واسع الاهمية الفردية (*).

* حصلت الباحثة على شهادة الماجستير في التاريخ من كلية الاداب بجامعة دمشق ، برسالته (عيون التواريخ لغرس النعمة محمد بن هلال الصابي ، دراسة وتحقيق) باشراف الدكتور سهيل زكار .

ثبت باهم المصادر والمراجع

- ١ - أحمد بن خلكان ، وفيات الاعيان ، باريس ١٨٢٨ .
- ٢ - أحمد بن يحيى ، المنية والامل في شرح الملل والنحل ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٣ - الليدي ا. دراوور ، الصابئة المندائيون ، بغداد ١٩٦٩ .
- ٤ - حمزة بن اسد بن القلانسي ، تاريخ دمشق ، دمشق ١٩٨٣ .
- ٥ - سهيل زكار ، اخبار القرامطة ، دمشق ١٩٨٣ .
- ٦ - سهيل زكار ، ماني والمناوية ، دمشق ١٩٨٥ .
- ٧ - عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة مصورة بيروت .
- ٨ - عبد الرزاق الحسيني ، الصابئون ، بيروت ١٩٨٣ .
- ٩ - عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ .
- ١٠ - عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر .
- ١١ - علي بن الحسين السعودي ، مروج الذهب ، ط . بيروت دار المعرفة .
- ١٢ - علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزغ ١٣٢٠ هـ .
- ١٣ - غضبان رومي عكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٣ .
- ١٤ - محمد بن اسحق النديم . الفهرس - طهران ١٩٧١ .
- ١٥ - محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لايبزغ ١٩٢٣ .
- ١٦ - محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٧ - محمد بن علي بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، مكتبة المثنى بغداد .
- ١٨ - محمد بن هلال الصابي ، الهفوات النادرة ، دمشق ١٩٦٧ .
- ١٩ - هلال بن المحسن الصابي ، تحف الامراء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٢٠ - يوسف بن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ط . مصورة وزارة الثقافة القاهرة .
- ٢١ - يوسف بن قز اوغلي (سبط ابن الجوزي) - مرآة الزمان - مخطوطة احمد الثالث رقم (٢٩٠٧ ب) .
- ٢٢ - باقوت الحموي ، ارشاد الارب الى معرفة الاديب ، القاهرة ١٩٠٩ .

- (١) غصبان رومي عكلة ، الصابنة ، بغداد ١٩٨٣ ص ١٠-٢٥ . عبد الرزاق الحسني ، الصابئون . بيروت ١٩٨٣ ص ١٤-٤٦ . عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ ص ٢٦-٣٥ . سهيل زكار ، ماني والمناوية م. دمشق ١٩٨٥ ص ٢٥٨-٢٨٦ . الليدي دراور ، الصابئة المندائيون بغداد ١٩٦٩ ص ٨-٢٢ .
- (٢) محمد بن اسحق النديم ، الفهرس ، طهران ١٩٧١ ص ٣٩٠ - ٣٩١ ، علي بن الحسين السعدي ، مروج الذهب ، بيروت ، دار المعرفة ، ج ١ ص ٢٢٢-٢٢٣ ، ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ . محمد بن علي بن حزم ، الفصل في الملك والنحل ، مكتبة المثنى بغداد ص ٩٤-١٠٣ ، محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لا يبرغ ١٩٢٣ ص ١٩١ - ١٩٢ ، ٢١٤ - ٢١٨ . احمد بن يحيى ، النية والامل في شرح الملل والنحل بيروت ١٩٧٩ ص ٧-٦٨ .
- (٣) ماني والمناوية ، ص ١٨-١١ ، ١٤٢ - ١٦٩ .
- (٤) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ ج ٧ ص ٤٧٤-٤٧٩ .
- (٥) الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، ١٦٥ - ١٧٨ .
- (٦) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم . بيروت ج ٨/١٧٦-١٧٩ . ابن ابي اصيبعة ، ط . بيروت ج ٢ ص ١٦٢ - ٢١٧ . ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، القاهرة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢-٣٦٢ .
- (٧) ابن الجوزي المصدر نفسه ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ص ٨٥-٨٧ .
- (٨) جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لا يبرغ ١٣٢٠ هـ ص ١٠٩-١١١ ، احمد بن خلكان ، وفيات الاعيان بارس ١٨٢٨ : ١/١٤٨ ، ياقوت الحموي ، ارشاد الاربيب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) حققه د.س : مرجليوت ، القاهرة ١٩٠٩ : ٢/٣٩٧ .
- (٩) نشر هذه المخطوطة سهيل زكار ضمن نصوص كتابه اخبار القرامطة . معجم الادباء : ٢/٣٩٧ .
- (١٠) اخبار القرامطة : ٥١-٥٢ .
- (١١) اخبار القرامطة ص ٧٠ .
- (١٢) نشر كتابه ((تحفة الامراء في تاريخ الوزراء)) في القاهرة عام ١٩٥٨ محققا من قبل عبد الستار احمد فراج .
- (١٣) مرآة الزمان ، مخطوطة احمد الثالث ٢٩٠٧ ، المجلد الثاني عشر حوادث سنة ٤٤٧ هـ .
- (١٤) المصدر نفسه .
- (١٥) انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ، دمشق ١٩٨٣ ص ١٤٠ .
- (١٦) محفوظ في مكتبة البودليان في اكسفورد برقم ١٢٥ .
- (١٧) لغرس النعمة ترجمة في المصادر التالية :
- المنتظم لابن الجوزي : ٧/١٥٧ ، ٨/١٨٨ ، ٢١٦ ، ٢٢/٩ - ٤٢ .
- الكامل بالتاريخ لابن الاثير حوادث سنة ٤٨٠ .
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ((نهاية المخطوط الذي نحققه)) .
- البداية الزاهرة لابن كثير ١٢/١٣٤ .

- النجوم لابن قفري بردي ١٢٦/٥ في ١٢٢ .
- النجوم الزاهرة لابن قفري بردي ٢٦/٥ ، ١٢٢ .
- كشف الظنون لحاجي خليفة ٢٩٩/١ .
- وورد ذكره في معجم الادباء لياقوت (ط . مرجليوث) ١٧٤/١ ، ١٩٤ ، ١٦٣/٥ ، ٢٠٤ ، ٢٥١/٦ .
- وذكره ابن خلكان في ترجمة ابيه هلال بن الحسن ، وابن الفوطي في كتابه تلخيص مجمع الاداب ١١٦٣/٢/٤ - ١١٦٤ ، كما تحدث عنه ميخائيل عواد في مقدمة رسوم دار الخلافة : ٢٥/٢١ ودرس حياته صالح الاشتر في مقدمة كتاب الهفوات النادرة .
- (١٨) انظر المنتظم ٤٢/٩ تلخيص مجمع الاداب ١١٦٣/٢/٤ ، البداية والنهاية ١٣٤/١٢ .
- (١٩) انظر الهفوات النادرة دمشق ١٩٦٧ : ١٤ ، ١٤١ ، ٢٧١ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ .
- (٢٠) المنتظم : ١٠١/٨ .
- (٢١) قفري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٢٦ .
- (٢٢) المنتظم ٢١٦/٨ .
- (٢٣) المنتظم ٤٢/٩ ، البداية والنهاية ١٣٤/٢ .
- (٢٤) انظر مجمع البلدان ٩٢/١٧ .
- (٢٥) انظر مقدمة المحقق ص ٢٨ .
- (٢٦) انظر مجمع الادباء ٢٥٥/٧ - ٢٥٦ . تاريخ الحكماء للقفطي ٢٩٤ .
- (٢٧) مقدمة المحقق ص ٣٢ .
- (٢٨) مقدمة المحقق ٣٣-٣٤ و ٣-٤ من نص الكتاب المحقق .
- (٢٩) انظر مقدمة المحقق ٩-١٤ ، وانظر ايضا بحث ((من العربية العباسية استقرار في الهفوات النادرة)) للدكتور ابراهيم السامرائي في مجلة الناشر العربي العدد الرابع ، ابريل ١٩٨٥ ص ٢٦ - ٣٢ .